محمـــــد إقبـــــال

شاعر الشرق والاسلام

الأستاذ مسعود الندوى

١٣٨٩ — ١٨٧٣ ١٣٥٧ — ١٩٣٨

— ٣ —

١٩٠٨ — ١٩٣٣

سُحبٌ من الدماء متراكمة تريد أن تمطر على طرابلس الغرب، وأخرى كثيفٌ من الغمام بدأت ترسل النجيع الأحمر مدراراً على سُهول أدرنة، وفى الجو طائرات تريد أن تنقضّ على الدولة العليّة — ودولة الخلافة — فتسلبها البقية الباقية من تراث أسلافها؛ وأجسادٌ من شيوخ المسلمين وشبانهم مضرجة مطروحة على شارع من شوارع (كان يور [1]) تحيّة بالجند ورجال الشرطة ... مشهد مؤلم فى طرابلس الغرب أهاب بالمجاهد العربى فهزّته الحميةُ الإسلامية وجعل يهتف: الله أكبر، سيف الحق مسلول؛ ومأساة فاجعة فى أدرنة أنطقت شاعر الكنانة وجعلته يرسل أنغامه دُرراً منظومة:

يا أخت أندلس عليك سلامُ ... هوت الخلافة عنك والإسلام

نزل الهلال عن السماء، وليتها ... طُويت وعمّ العالمين ظلام

وهذه المآسى المحزنة، وتلك الفجائع المؤلمة؛ وأخرى من مهازل الاستعمار فى طول الهند وعرضها، جعلت صاحبنا شاعراً إسلامياً يتألم لكلّ ما يصيب المسلمين من أذى أو مكروه، فتجود قريحته المطبوعة بما يربط جأش المجاهد ويُثير الفقيه المنعزل فى زاويته ويُرشد المتعوه الأبله المنخدع بأضاليل الغرب وترهاته. وهو بين هذا وذاك مؤمن بالله لا يتسرب اليأسُ إلى نفسه، وقلبه مطمئن بالإيمان. فهو يقول:

إنك مسلم، فاجعل قلبك معموراً بالأمانى والآمال واذكر داعماً وعد الذى قال: (إنّ الله لا يُخلف الميعاد)

وتراه لا يجزع للنوائب والملمات:

« عشية الألم تسفر عن صباح العيد؛ هاهو ذا تبلّج فجر الأمل من بين دياجير اليأس ».

ولله قريحته حيث جادت بهذا البيت النفيس:

هل تنثر الأزهار والرياحين على قبر الشهيد

الذى فعل المسفوح من دمه بأمتنا، فعل الغيث بالشجرة النابتة

وهذا المعنى — أى معنى الحياة بعد الممات والفرج بعد الشدة والنجاح بعد اليأس — مثله كمثل غرض تعاوره الرماة، فمنهم من هو مقصرٌ دونه، ومنهم من هو واقع يميناً وشمالا، ولم أر أحداً أصاب المرمى كصاحبنا ممن تقدم وتأخر. ولكن من أين لى ذلك البيان الذى يُضاهى بيان شاعرنا، شاعر الإسلام. وهذا عذرى إلى من وجد الترجمة ركيكة. فمن أبياته الراقية فى هذا المعنى:

ما لنا نحزن ونكتئب، إذا تتابعت النوائب على العثمانيين[1] فإن الفجر لا ينبثق إلا بعد مانهراق دماء مئات الألوف من الكواكب

ورجع محمد إقبال من أوربا، والهند الإسلامية تكاد تحسّ بتفهقرها فى ميادين العمل والكفاح؛ وزعمائنا المتفرنجين فى دينهم وأخلاقهم والرجعيين فى سياستهم، سلطانٌ عليهم، فاتخذ من شعره البليغ المعجز آلة لإيقاظ النائمين من سباتهم وتثقيف الشبان العاملين وصرفهم عن الاغترار بمظاهر التمدن الحديث، ووسيلة لتربية ملكات المتعلمين النفسية والخلقية وتطهير نفوسهم من أدران الأقليمية واللون والنسب. وبدأ يقرض القصائد ويطبع الدواوين حتى أنبتت بذرته وأثمرت وآتت أكلها. وما هذه النهضة التى نشاهد اليوم آثارها إلا وميض من بروق إقبال وصنيعة من صنائعه:

صنائع فاق صانعها، فقالت ... وغرسٌ طاب غارسه فطابا

وكان من حُسن حظ الشاعر الحكيم — أجزل الله مثوبته فى الدارين — أن قد شاهد هذا الغرس ينمو ويكبر أمام عينيه إلى أن أصبح شجرة باسقة الفروع، وهو حىٌّ يرزق.

(١) إشارة إلى مأساة مدينة كان يور التى وقعت عام ١٩١٣، والتى هدمت فيها الحكومة جزءاً من مسجدها الجامع لتوسيع أحد الشوارع الكبرى؛ فثار ثائر المسلمين وأرادت جماعة منهم أن تبنى الجامع من جديد وتعيده إلى سيرته الأولى بالرغم من الحكومة وجنودها. ولما بدأوا بالعمل أطلقت عليهم الجنود النيران وفتكت بهم فتكا ذريعاً.

(١) يريد آل عثمان، حملة لواء الخلافة يومئذ.

فى الطور الثالث من حياته الشعرية جاش صدر إقبال بشعر قوى بليغ ، ممتلىء حكمةً وقوة ، نبَّه النائمين من غفلتهم الفاشية عليهم وأرشدهم إلى الصراط السوى فى حياتهم السياسية . ومن خصائص هذا الشعر أن صاحبه يُفرغه فى قالب من التحدى بليغ كأنى به يُلهَمُه إلهاماً . أما معانيه السامية فما لا يُستراب فيه أنها لا تتسنى إلا لمن فتح الله قلبه لأسرار الطبيعة ، وحوادث المستقبل . وأحسن كلمة له فى هذا الطور « منارة السارى » أو « دليل الطريق » (خضرراه) التى بين فيها الشاعر الحكيم بلسان الخضر مشاكل السياسة الأوربية وأسرارها ، وحذَّر المسلمين وأهل الشرق من الوقوع فى شركها ، وأنار لهم فيها الطريق السوى الضامن لسعادتى الدين والدنيا ، إلى غيرها مما جاء فى ثنايا من دور الحكم وغررها . وهاك ترجمة بعض أبيات منها . قال — برَّد الله مضجعه — يكشف النقاب عن وجه الجمهورية الغربية الدميم :

« ما هذه الجمهورية الغربية إلا تلك القيثارة المتيقة التى لا يظهر من أوتارها غير أصوات المزقلية والكسروية ؛

وهذه الملابس الجمهورية المزركشة يمرح فيها شيطان الاستبداد ويختال ، وأنت تزعم أن عروس الحرية الجميلة تميس فى بردها ؛

وهذه مجالس التشريع والإصلاح ولجان الحقوق كلها أدوية حلوة المذاق ، اخترعها الطبُّ الأفرنجىُّ للتنويم والتخدير »

وسق الله تلك القريحة المبدعة التى أرادت أن تُصوِّر حال العالم الإسلامى بعد الحرب العظمى فأحسنت وأبدعت :

« قد ذهب أبنـــاء التثليث بتراث إبراهيم

وأصبحت تربة الحجاز أساساً لتبيان الكنائس الأوربية ؛

« وأضحت دماء المسلمين رخيصة كماء النهر الجـــارى ؛

وما بكاؤك لهذه الحال المؤلمة إلا لأنك لا تعرف حكمة الله فى عباده »

وفى الختام يصف دواء ناجعاً لجميع أدواء الأمة :

« لا يمكن تخليص الشرق من براثن الاستعمار ونجاته من سلطته إلا إذا اتحد المسلمون ، واجتمعت كلمتهم ، ولكن أهل آسيا لا يزالون يجهلون هذه الحكمة البالغة . وحذار أن تبقى مُتلهياً بالنظريات السياسية الباطلة ، وادخل فى حمى الدين من جديد ، فإن الملكة إنما هى ثمرة من ثمرات الدفاع عن الحرم .

فليتحد المسلمون وليكونوا كتلة واحدة متضامنة للذود عن بيت الله الحرام من شاطىء النيل إلى أرض كاشغر .

والذى يُفرِّق فى ذلك بين اللون والدم ، سوف ينعدم وجوده من وجه الأرض .

سواء فى ذلك التركى الأبى والعربى النبيل .

وإن آثرت أيها المسلم عنصرك وسلامتك على دينك ، فلن يبقى لك عين فى هذه الدنيا ولا أثر » .

وجدير بالاستماع والأذكار ، رأىُ صاحبنا فى الحضارة الجديدة من هذه الكلمة ، لأنه ممن قتل الغرب بحثاً ونخل علومهم نخلا . قال « لله دره » :

« تعجبكم هذه الحضارة الحديثة ويبهر عيونكم جمالها وما هى إلا كفصوص موهتها يد الصناع وجلتها فاختطف الأبصار لمعانها الكاذب .

والحكمة التى يفتخر بها حكماء الغرب ويتشدقون ببركاتها هاهى قد عادت بأيديهم سيوفاً تقطر دماً .

أترون أن هذه الحضارة يكتب لها الخلود بالحيل التى يدبرها لها ساستها ؟ لعمر الحق ، أن كل حضارة أسِّس بنيانها على التنافس فى الأموال والتكالب على الشهوات سوف تنهـــار ويتبدَّد شملها » .

وفى هذا الدور من شعره كلمات أخرى مأثورة مشهورة فى « طرابلس الغرب » و « فاطمة الشهيدة » و « الشكوى إلى الله » وغيرها من القصائد المنثورة فى ديوانه « نداء الرحيل » (بانك درا) لا يتسع المقام للاقتطاف من أزهارها .

بلغ الشاعر فى المرحلة الثالثة من حياته الشعرية ذروة مجده فى الأدب ، وحلَّ من محل قلوب المتأدبين محلاً يتنافس فيه المتنافسون ، وذلك أن شعره فى هذه المرحلة كان مرآة لعواطف الأمة وأمانيها ، وصورة صادقة لنهضاتها السياسية والأدبية ، فوجدت الأمة فى زفراته وتأوهاته ، صدًى لآلامها المتتابعة والنوائب المتوالية المنصبَّة على رؤوسها ، وفى دعوته وعظاته ، ضالتها المنشودة وأمنيتها . وهو بعد كل ذلك شاعر يهز مشاعر النفس ، وخطيب يُذكى فى أعماق الفؤاد جذوة العمل والكفاح ، وحكيم يقيهم مهالك الغرب وخزعبلاته ، ويرشدهم إلى طريق الخير والسعادة .

قد أدّى شاعرنا مهمة كبيرة من حياته فى هـذه المرحلة الشعرية ، حيث أبلغ الأمة دعوته أو رسالته ؛ لـكنه ما وهبه الله هذا البيان والحـكمة ليـكون شاعر شعب دون شعب ؛ وإنما أراد ربك أن يكون شاعر الأمة الإسلامية جماء ، يدعوها إلى التـكاتف والتعاضد ، ويُريهم سبل الحق والسلام ، وينير لهم المحجة البيضاء فى ظلمات المادية الحالـكة . أما شعره فى الأردية فما كان ليخترق حدود الهند ، فاختار اللغـة الفارسية واتخذها وسيلة لتعميم دعوته أولا ، وتثقيف المتأدبين (١) من أهل الهند ثانياً . وأول شـعر نشره باللغة الفارسـية مجموعة « أسرار خودى » (أسرار فلسفة الذاتية التى يؤمن بها « إقبال » ويدعو الأمة إليها دائماً) . وهذه المجموعة من شعره تحتوى على أسرار وحكم مفرغة فى قالب الأدب ، تبين للمسلم السـبيل التى يُمكّنُ بها من ترقية ملـكاته النفسية حتى تخضع الطبيعة لإرادته ، وينزل القدر عند مشيئته . وهذه هى فلسـفة « خودى » (تربية الملـكات الذاتية) التى جعلها الشاعر قطباً تدور حوله جملة كبيرة من شعره البليغ فى هذه المجموعة وغيره من الدواوين . فإنه اهتم به « خودى » كثيراً ورأى أنه لا يُكرم فى الدنيا إلا الذى يكرم نفسه ، ويُرى للعالمين ما فى نفسه من إباء وسموهة وعلو فـكرة . ويكفينى مؤونة التطويل فى شرح الذاتية « خودى » ما بيّنه الشاعر من ثمراتها فى بيت له :

اشحذ قوتك الذاتية (خودى) وأوردها فى مكانة من القوة والعلو حيث يسأل الله العبـد عن مرضاته قبل أن يجعل لشىء أجـلا .

لا يريد الشاعر أن الله تعالى يسأل العبد عن مرضاته فى الحقيقة ؛ وإنما جعل ابتغاء الله لمرضات عبده مثلا فى تربية القوة الذاتية . وإنما يريد صاحبنا من المسلم أن يربى قواه النفسية تربية تخضع لإرادته الأرض وما فيها من القوى المـادية والأدبية . وليس معنى ذلك أن يختار المسلم فى ترقية مواهبه سبيلا غير سبيل الـكتاب والسنة . وبما أن فلسـفة الذاتية (خودى) من أهم أجزاء دعوة حـكيم الشرق ، عُنى بها أهل الشرق والغرب ، وترجم الدكتور نـكلسن ، أستاذ صاحبنا ، ديوان أسرار (خودى (١)) بالإنجليزية . وكذلك عُنى بهـا جميع من أهل الغرب فى مسلمى الهند وقادة أفـكارهم . وهاك فى ما يلى نبذة من أقوال الدكتور (تائيدس) فى كتابه الإسلام الهندى ، Indisn Islam (٢) اهل أكثر المعاصرين نفوذاً وأبلغهم تأثيراً فى إسلام الهنود ، هو الشاعر الفيلسوف السر محمد إقبال الذى أبلغ أبناء دينه رسالة كان لها أثر فى نفوسهم . فإنه بين لهم إمكان التجديد الفردى وترقية القسم العالى من الشخصية بتقوية الإرادة وبتأدية اسمى ما يمكن المرء أداؤه فى هذه الحياة الدنيا حسب ما أمر به الله ورسوله .

وكذلك جاء فى كتاب دين الإسلام Irlamie Eaih (٣) للعالم النزيه الشهير الدكتور آرنـكد ، وهو من أعرف الناس بمسلمى الهند ورجالهم ما تعريبه ، وبذلك يعرف القارئ ما فى شعره من فلسفة :

ووجدت الحركة الجديدة فى الهند لسانا فصيحاً فى شعر السر إقبال ، أحد من درسوا الفلسفة الغربية بجدّ واهتمام وأحاطوا بها ، ولقد أثر فى الناشئة تأثيراً بليغاً ، ولـكن شعره ما استطاع أن يكون بطبيعة الحال أساساً لحركة دينية عامة منظمة للصبغـة الفلسفية التى اصطبغت بها دعوته ، ولعل ذلك لم يكن قط من إرادة الشاعر ولا مرماه .

« يتبع »

مسعود الندوى

(١) يرى شاعرنا أن التربية العقلية الناضجة التى أراد أن يربى الأمة وينشئهم عليها لا ينتفع بها إلا من أوتى حظاً وافراً من التعليم . ومن هناك اختياره اللغة الفارسية لأنه لا يعرفها فى الهند إلا المتأدبون والمتعلمون

(٢) ص ٢١٥ (٣) ص ٧٧

اطلب كتاب

دفاع عن البلاغة